علاقة المعجم بمستويات التحليل اللساني

نسيمة بومحديو[1] أ.د كمال عطاب[2]

1- كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار – عنابة، boumehadiounassima@hotmail.fr

2- كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار – عنابة، attabbouraoui@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2015/07/01 **تاريخ المراجعة:** 2016/05/16 **تاريخ القبول:** 2016/06/26

ملخص

نهدف من وراء هذه الدراسة إلى إثبات العلاقة القائمة بين المعجم ومستويات التحليل اللساني، وأنه ليس مجرّد كتاب جمع بين دفّتيه موروثا لغوي اضخما للحفاظ على هاته اللغة من الضياع، وذلك من أجل:

- دحض ما قاله يلمسليف بأن المعجم خارج عن إطار المنظومة اللسانية.

- التأكد من مقولة إبراهيم بن مراد بأنّ هاته المستويات تعدّ من صميم الصّناعة المعجمية، على اعتبار أنّ مكونات المعاجم هي المفردات ولا تخلو مفردة من مكون صوتي أو صرفي أو نحوي.

الكلمات المفاتيح: صناعة معجمية، تحليل، مكونات معاجم، منظومة لسانية.

La relation du dictionnaire avec les niveaux d'analyse linguistique

Résumé

Le but de cette étude est d'établir la relation entre le dictionnaire et les niveaux linguistiques. Cet ouvrage n'est pas un simple livre qui contient le patrimoine linguistique dans le but de préserver cette langue, mais afin de:

- démontrer que le dictionnaire n'est pas hors du processus linguistique.

- prouver la justesse de l'avis de Brahim Ben Merad selon lequel ces niveaux font partie intégrante de la lexicographie, vue que la composante des dictionnaires sont les mots qui ne sont pas dénués de composants phonétiques, morphologiques et syntaxiques.

Mots-clés: Lexicographie, analyse, composantes des dictionnaires, système linguistique.

The dictionary's relationship with other language levels

Abstract

The purpose of this study is to prove the relationship that links the dictionary with other language levels, and that it is not a simple book that contains the linguistic heritage in order to protect the language, and in goal:

- Demonstrate that the dictionary is not out of the linguistic process.

- To validate the opinion of Ben Brahim Merad that these levels are part of lexicography, dictionaries for the component are the words that are not devoid of phonetic components, morphological and syntactic.

Key words: Lexicography, analysis, components of dictionary, linguistics system.

المؤلف المرسل: نسيمة بومحديو، boumehadiounassima@hotmail.fr

تمهيد:

شهدت اللغة العربية منذ نزول القرآن الكريم على سيّد الخلق محمّد –**صلى الله عليه وسلم**- إقبالا منقطع النّظير من قبل أبنائها، ذلك أنّهم لم ينتبهوا سابقا إلى الأصول التي تحكمها؛ لأنّهم كانوا يتحدّثون بحسب فطرتهم، لكن مع مجيء القرآن ظهرت ألفاظ جديدة لم يكن للعربي سابق معرفة بها أو أنّها لم تكن متداولة في كامل الجزيرة العربية، فراحوا يبحثون عن معانيها ويطلبونها في الشعر العربيّ[1] وألّفوا بذلك كتبا في غريب القرآن وأخرى في غريب الحديث. ومع دخول الأعاجم الإسلامَ واتّساع الرّقعة الجغرافية للدّولة الإسلامية دخلت ألفاظ جديدة حيز الاستعمال، فكان لزاما على أبناء هاته اللّغة جمع شتات لغتهم في مدوّنات تحفظ ألفاظها وأسس النّطق بها، وما استجدّ فيها من استعمال أطلقوا عليها تسمية **المعجم**[2]، لكنّ الشّيء الملاحظ على هاته المدوّنات أنّها لم تعمل على حفظ مفردات اللّغة من ضياع معانيها فحسب، بل عملت على حفظ بنيتها الصّوتيّة والصّرفية والتّركيبية إضافة إلى الدّلالات التي تشبّعت بها من عصر إلى آخر، وهذا مخالف لما قاله يلمسليف (Hjelmslev) بأنّ: **«المعجميّة تظلّ خانة فارغة في نظامية علمنا [اللّسانيات]، وبأنّها بالضّرورة ليست سوى تأليف قاموسي، أو مجرّد سرد لعدد غير ثابت وغير مؤكّد من الكمّيّات المحدّدة بشكل سيّء، يسند إليها خليط مبهم من الاستعمالات المختلفة والاعتباطية في الظّاهر»**[3].

من هذا المنطلق سنحاول الإجابة على الأسئلة الآتية:

- كيف استطاع علماؤنا توظيف أنظمة اللغة العربية من صوت، وصرف، ونحو، ودلالة لخدمة المعجم؟

- هل كان توظيفهم لهذه الأنظمة توظيفا مباشرا أم ضمنيا؟

1- تقاطع علم الأصوات مع المعجم:

لكلّ لغة بشرية خصائصها الصّوتيّة الخاضعة لقواعد وقوانين خاصّة تجعلها مميّزة عن غيرها من اللّغات، وهي الظّاهرة الّتي كانت محطّ انتباه العلماء بمختلف تخصّصاتهم حتّى قيل: «**وحدّها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم**»[4]؛ لهذا جعلها العرب أساسا يعوّل عليه في معرفة فصيح كلامهم من مستهجنه. ولئن كان هذا حال العربيّ مع لغته المنطوقة فلا جرم أن ينتقل هذا التّأثّر إلى كتاباته ومناظراته وعلومه؛ فهذا سيبويه (ت 180هـ) يستهلّ باب الإدغام بمقدّمة صوتيّة شاملة لخصائص الحرف العربي* ومميّزاته، ثمّ يبيّن حسنها وقبيحها في تلاوة القرآن[5] قبل أن يبدأ الحديث عن الإدغام، كلّ ذلك حتّى «**تعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تبدله استثقالا كما تدغم وما تخفيه وهو بزنة المتحرّك**»[6].

وألّف ابن جنّي (ت396هـ) كتابه **سر صناعة الإعراب** لغرض مماثل فظّاهره في علم الصرف لكن حقيقته في علم الأصوات[7]، والفنولوجيا واتخذه وسيلة تساعده على تفسير الظّواهر الصّرفيّة للّغة العربيّة*في مقدّمة كتابه حينما قال: «**ثمّ أُفرد فيما بعد لكلّ حرف منها بابا أغترق فيه ذكر أحواله وتصرّفه في الكلام من أصليّته وزيادته، وصحّته وعلّته، وقلبه إلى غيره، وقلب غيره إليه**»[8] هذا وقد سار كلّ من اشتغل في الصّرف العربي منذ ذلك الوقت على نهج هذين العالمين بأن ربطوا بين هذين العلمين فجعلوا الصّوت أساسا يعوّل عليه في معرفة التّغيّرات الصّرفيّة للبنية العربيّة.

- وإذا كانت هذه مكانة علم الأصوات لدى الصّرفيّين، فهي عند اللّغويّين أسبق، ويظهر ذلك ابتداءً من الخليل (ت175هـ) صاحب **كتاب العين**.

رأى الخليل بأنّ البدء في ترتيب مواد معجمه على نهج نصر بن عاصم لا يستقيم على اعتبار أنّ حرف الألف حرف هوائي، ما جعله ينقّب عن خصائص الحروف (الأصوات عند علماء اللغة المحدثين)في العربية

ليهتدي إلى كون حرف العين أنسب حرف يمكن الابتداء به، فقد جاء في مقدّمة معجمه: «**هذا ما ألّفه الخليل بن أحمد البصري –رحمه الله– من حروف ا، ب، ت مع ما تكلّمت به فكان مدار كلام العرب وألفاظهم فلا يخرج منها عنه شيء، أراد أن تعرف به العرب في أشعارها وأمثالها ومخاطباتها، فلا يشذ عنه شيء من ذلك، فأعمل فكره فيه فلم يمكنه أن يبتدئ التّأليف من أوّل ا، ب، ت، ث، وهو الألف، لأنّ الألف حرف معتلّ فلمّا فاته الحرف الأوّل كره أن يبتدئ بالثّاني –وهو الباء– إلّا بعد حجّة واستقصاء النّظر فدبّر ونظر إلى الحروف كلّها وذاقها [فوجد مخرج الكلام كلّه من الحلق] فصيّر أولاهما بالابتداء أدخل حرف منها في الحلق**»[(9)]، فكان حرف العين بهذا الأساس أوّل حرف اعتمده الخليل لترتيب معجمه، لتليه بقيّة حروف المخرج الحلقي الأقصى [ج، ه، خ، غ]، ثمّ الحروف اللّهويّة [ق، ك]، ثمّ الحروف الشّجرية [ج، ش، ض]، فالحروف الأسليّة [ص، س، ز]، والنّطعيّة [ط، د، ت]، واللّثويّة [ظ، ث، ذ]، لتليها بعد ذلك حروف الذّلق [ر، ل، ن] ثمّ الشّفويّة [ف، ب، م]، أمّا الواو والياء والألف فقد وصفها بالهوائيّة.

إنّ تقسيم الخليل أصوات العربيّة على هاته الأحياز التّسعة ينمّ عن دقّة الملاحظة لديه؛ فالمتأمّل لهذه التّصنيفات وذكره لخصائص كلّ صوت (حرف بتعبير الخليل) في مقدّمة كتابه سيجد الرّجل قد وضع اللّبنة الأساس لدراسة الصّوت العربي، بحيث بيّن صفاته ومميّزاته، وهذا ما يندرج في نظر اللّسانيّين ضمن **علم الأصوات العام**، لكنّه لم يقصد منها دراسة الأصوات في حدّ ذاتها؛ لأنّ هدفه الأساس كان إيجاد القوانين الفونولوجيّة التي تحكم بنية الكلمة العربية بمعنى إمكانية تجاور الأصوات مع بعضها البعض داخل الكلمة الواحدة، وكذا الاعتماد عليه لمعرفة أصل الكلمة هل هي عربيّة أم دخيلة أم معرّبة، ومن أمثلة ذلك قوله: «فإن وردت عليك كلمة رباعيّة أو خماسيّة معرّاة من حروف الذّلق أو الشفويّة ولا يكون في تلك الكلمة من هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك فاعلم أنّ تلك الكلمة محدثة مبتدعة، ليست من كلام العرب لأنّك لست واجدا من يسمع من كلام العرب كلمة واحدة رباعيّة أو خماسيّة إلّا وفيها من حروف الذّلق والشّفويّة واحد أو اثنان أو أكثر.»[(10)] هذا فيما يخصّ معرفة أصول الكلمات في المعجم، أمّا ما تعلّق بمعرفة إمكانية تجاور الأصوات فيظهر فيما عرف عند الخليل بمسألة **المهمل والمستعمل** من الكلمات العربية، أين وجد –وفق عمليّة حسابية[(11)]– بأنّ هناك كلمات في العربية غير مستعملة قد يعود ذلك إلى عدم تداولها، وقد يرجع إلى تنافر أصواتها، ومن أمثلة ذلك قوله:«**إنّ العين لا تأتلف مع الحاء في كلمة واحدة لقرب مخرجيهما إلّا أن يشتقّ فعل من جمع بين كلمتين مثل «حيّ على» كقول الشّاعر***

أَلا رُبَّ طَيفٍ بانَ مِنكِ مُعَانِقِي إِلَى أَنْ دَعَا دَاعِي الْفَلَاحِ فَحَيْعَلَا

فبنى من الكلمتين كلمة، فهذا من النّحت، فهذا من الحجّة في قولهم: حَيْعَلَ حَيْعَلَة، فإنّها مأخوذة من كلمتين (حيّ على) وما وجد من ذلك فهذا بابه وإلّا فإنّ العين مع هذه الحروف: الغين والهاء والحاء والخاء مهملات»[(12)].

2- تقاطع علم الصّرف مع المعجم:

يعتبر علم الصّرف ثاني أنظمة اللّغة العربيّة استغلالا لدى علماء المعاجم، وذلك لما يؤدّيه من دور محوري داخل المنظومة اللّغويّة؛ لأنّ أصوات اللّغة تنتظم في بناء معيّن وَوفق قوانين صرفيّة محدّدة لتشكّل وحدات صرفيّة، تنتظم بدورها تبعا لنسق معيّن في جمل من شأنها أن تؤدّي «**الوظيفة التواصليّة**»، لأنّ «**جوهر اللّغة نشاط إنساني، نشاط من قبل الفرد ليجعل نفسه مفهوما من الآخرين، ونشاط من قبل الآخرين ليفهموا ما يدور في عقل الفرد**»[(13)] على حدّ تعبير أوتويسبرسن.

الجذر: يعرّف جون كانتينو (Contineau)* الجذر بقوله: «**العنصر الأساسي المشترك بين مجموعة كلمات ذات قرابة معنويّة**» ويشير بلاشير(**Blachère**) **إلى أنّ الجذر هو «مجموع صوتين أو ثلاثة أو أربعة تمثّل لمفهوم محدّد،**

(ك، ت، ب)»[14]، فإذا كان موشّى بالمصوّتات أصبح ذا مدلول معيّن يتغيّر بتغيّرها؛ لذا عرّفه هنري فليش بقوله: «**هو الهيكل الصّامتي الذي يشكّل بنيات مختلفة بإدخال المصوّتات**»[15] الأمر الذي جعله يعدّ الحجر الأساس الذي يبني عليه الصّرفيّ والمعجميّ عملهما؛ فالصّرفيّ اتّخذه مقياسا عادلا يلجأ إليه لتحديد بنية الكلم في العربية*، ومعرفة الزّائد من الأصليّ، والصّحيح من المبدل والمنقلب والمعتل. وتبدو أهمّية الجذر واضحة للعيان أكثر «**حينما وجد علماء العربيّة أنفسهم أمام جذور لا تمتثل للصّورة القياسيّة في عرفهم فافترضوا لذلك صورا هي من محض خيالهم. والقول بالأصل الافتراضي للكلمة هنا ليس ضربا من الميتافيزيقا لا يعتمد على مبدإ علمي سليم كما يرى الوصفيّون إنّما هو مسألة أساسيّة في فهم البنية العميقة وتحوّلها إلى بنية السّطح**»[16]، ويمكن تفسير وجهة نظر الجانبين بالقول: إنّ فكرة الأصل الافتراضي لهذا النّوع من الجذور – مادّة (ق و ل) على سبيل المثال– التي يقول بها الوصفيّون إنّما يعود إلى مبدإ تعليمي؛ لأنّ الواقع يقول بأنّ المستعمل هو الفعل **قَالَ** وليس **قَوَلَ**، أمّا اعتماد فكرة البنية السّطحيّة والبنية العميقة في تفسير هذا النّوع من الظّواهر اللّغويّة فتقودنا إلى القول بأنّ علماءنا غاصوا في أعماق اللّغة، ولم يكتفوا بما هو ظاهر؛ لأنّهم إذا جعلوا من مادّة (ق ا ل) المادّة الثّلاثيّة للفعل قال كما هو الحال بالنّسبة لمادّة (ك ت ب) مع الفعل كَتَبَ سيظهر هناك خلل داخل نظام اللّغة؛ لأنّ الحرف الثّاني للجذر وهو الألف (ا) لا نجده إلّا في الفعل الماضي، أمّا مع باقي المشتقّات فالحرف الذي يتكرّر دائما هو الواو (و)، في حين أنّ الحروف المشكّلة لمادّة (ك ت ب) تتكرّر بصفة متواترة في كلّ المشتقّات مهما تغيّرت الصّيغ، وتتبع ترتيبا واحدا؛ لهذا كان على علماء اللّغة العربيّة أن يعملوا فكرهم لمعرفة أصل هذه الألف إلى أن توصّلوا إلى أنّها منقلبة عن واو أو ياء وذلك باللّجوء إلى: المضارع، والمصدر، والتّثنية، والجمع، والتّصغير وهو الأمر الذي سهّل على المعجميّين عملهم، حيث اتّخذوا منه –أي من الجذر– منذ وضعهم أوّل معجم عربي* أساسا يعوّل عليه لترتيب المواد داخله، وبالتّالي تفادي الخلاف الذي كان قائما بين مدرستي البصرة والكوفة حول أصل المشتقّات، وفي هذا يقول حلمي خليل «**إنّ العلاقة بين الجذر والصّيغ والأوزان أيضا تؤدّي من وجهة النّظر المعجميّة إلى رفض الخلاف الذي نشب بين علماء العربية حول أصل المشتقّات، هل هو المصدر أم الفعل، لأنّ علماء المعاجم كانوا أهدى حسّا عندما نظروا إلى الجذر على أنّه أصل المشتقّات**»[17]، وبهذا سهّلوا على الباحث في مؤلّفاتهم إيجاد الكلمات بيسر، وكذا معرفة ما وقع فيها من تغيِّر، إذ يكفيه التّعرّف على الحروف التي تشترك فيها مجموعة من المشتقّات (اسم فاعل، اسم مفعول، مصدر...) حتّى يحدّد الجذر الذي تنتمي إليه؛ لهذا عُدّ «**الجذر ركنا أساسا في العمل المعجمي، إذ هو الوسيلة التي تتحقّق بها الصّلة بين الكلمات في جذر واحد لا يتغيّر وهو ما يعبّر عنه المعجميّون بالاشتراك في المادّة Basic Form حيث يجعلون حروف هذا الجذر مدخلا Entry Form إلى شرح أو تعريف دلالات الكلمات التي ترجع إلى جذر أو أصل واحد ثابت، وهو يشكّل في الحقيقة البنية الأساسية للكلمة والمعجم معا**»[18] وإذا ما تمّ التّخلّي عنها فقدت اللغة العربية إحدى خصائصها التي تميّزها عن اللّغات الأخرى، وهذا ما حدث مع جبران مسعود عند تأليفه معجم **الرائد** الذي كان هدفه من وراء هذا التّأليف التّخلّص من كلّ قديم رث من شأنه أن يعيق نمو اللّغة العربيّة حيث قال: «**وهكذا بدأت العمل، بدأته وفي ضميري معاني الثورة والحب والتّضحية، الثورة على كلّ بال يؤخّر نمو اللّغة الفصحى ويباعد ما بينها وبين مريدها، والحب لكلّ ما من شأنه النّفع والخدمة وفتح مسار العافية، والتّضحية بالوقت والشّباب لبلوغ نهاية الأرب**»[19] لكنّه مع كلّ هذا وقع في مغبّة الإخلال بنظام اللّغة العربيّة الذي ظلّ علماؤنا يسبرون أغواره طيلة قرون، فالمتأمّل لهذا المعجم سيلحظ وجود فوضى في ترتيب المواد داخله، فعلى الرّغم من كون الطّريقة التي اتّبعها تساعد النّاشئة على إيجاد الكلمات بسهولة فإنّها أفقدت اللّغة العربيّة تلك الخاصية الاشتقاقية التي تتميّز بها، وذلك بتفكيك المفردات المنتمية إلى جذر واحد بين الأبواب ما

نتج عنه –بالضّرورة– تضخّم في بعض الأبواب وشبه اضمحلال في البعض الآخر؛ فقد بلغ عدد صفحات باب الألف في معجم الرائد مئة وأربع صفحات، في حين لم يتعدّ باب الظّاء الصّفحتين، ومن أمثلة ذلك تفرّق المفردات التي تنتمي إلى الجذر (ل ه ب) بين بابي الألف واللام، إذ جاء ذكر اللّهب في باب اللاّم، والالتهاب والْتَهب في باب الألف[20]، وقد علّق عبد الرّحمن الحاج صالح على مثل هذا التّجاوز بقوله: «**ولا بأس في وضع مثل ذلك للأطفال وكلّ من يريد تعلّم العربيّة (من الأجانب وغيرهم) للتّسهيل عليهم في استعمال المعجم في وقت مبكّر، إلّا أنّ مثل هذه المعاجم إذا عمّمت فستشوّه العربيّة وتعرقل إلى حدّ بعيد التّعمّق في معرفة معجمها لأنّ العربيّة بنيت مفرداتها المتصرّفة على أصول وصيغ، ومنهج اكتساب مفرداتها هو متوقّف تماما على معرفة الأصول والصّيغ وكيفيّة تصرّف المتعلّم فيها أي كيفيّة انتقال النّاطق والمحرّر من مادّة أصليّة إلى أخرى بالحفاظ على الصّيغة، ومن صيغة إلى أخرى بإبقاء المادّة الأصليّة على ما هي عليه**»[21]، وهذا ما هو معمول به في المعاجم المدرسيّة، إذ تذكر الكلمة كما هي سواء أكانت مزيدة أم مجرّدة ثمّ تذكر بين قوسين الجذر نحو انطلق انطلاقا (طلق) وهي طريقة تسهّل على النّاشئة البحث عن الكلمة في المعجم، وعليه يمكن اعتبار هذا التّجاوز تسهيلا للمبتدئ حتى يستطيع دخول عالم اللّغة العربيّة، دون أن ننسى التّمهيد في مرحلة لاحقة إلى الخاصيّة الاشتقاقيّة وذلك بالإحالة إلى المادّة الأصليّة في الموضع الّذي ذكرت فيه المفردة أوّل مرّة. وقد طبّق مجمع اللّغة العربيّة ذلك في كثير من الأحيان عند إنجاز «**المعجم الوجيز**»، حيث لجأ مؤلّفوه إلى ذكر الكلمة التي تحتوي على قلب أو إبدال في موضع، ثمّ أشاروا إلى المادّة الأصليّة التي تنضوي تحتها هذه المفردة، ومثال ذلك قوله: «(**آسيا**): **أعظم القارّات اتّساعا، تمتدّ من المنطقة الجامدة الشّماليّة، ويعيش فيها نحو نصف سكّان العالم، النّسبة إليها، آسيويّ، وقد جاءت بغير مدّ: أسيا. (انظر: أسى)**»[22].

دليل على إدراكهم لأهمية الجذر الذي يمثّل النّواة التي ننطلق منها لإيجاد المشتقّات، يقول فايز الدّاية: «**وليس الرّصيد اللّغوي للمفردات محصورا في كمّ معيّن يزداد بصورة تراكميّة مفصومة العرى فيما بينها أو هي واهية. إنّ النّشاط الاشتقاقي يمثّل اتّجاها نازلا نحو المركز –المصادر الأصليّة– واتّجاها آخر صاعدا إلى أطراف الدّائرة المحدّدة بالأوزان والصّيغ المقبولة بعد استقراء للأسلوب العربي الصّحيح في التّعبير أثناء عمليّات الجمع والتّدوين والتّقعيد**»[23]، ويمكن أن نمثّل لهذه العلاقة التّلازمية بالشّكل الآتي*:

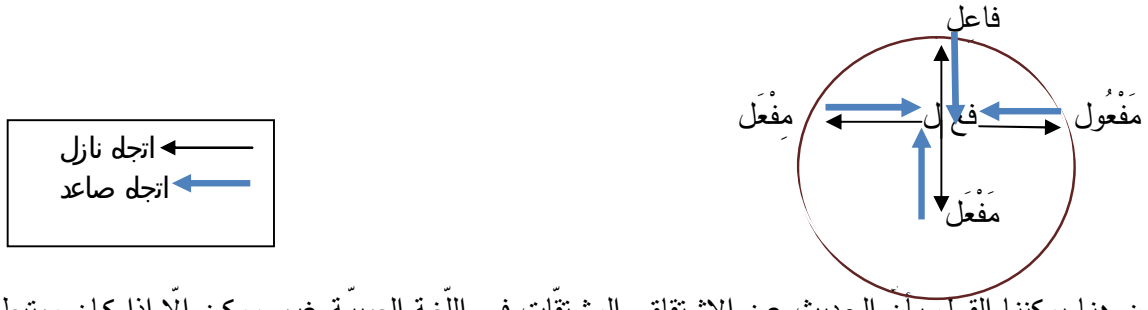

من هنا يمكننا القول بأنّ الحديث عن الاشتقاق والمشتقّات في اللّغة العربيّة غير ممكن إلّا إذا كان مرتبطا بفكرة الجذر، وهذا ما سنوضّحه فيما يأتي:

ب– المشتقّات: حلقة أخرى يشترك فيها كلّ من المعجم وعلم الصّرف، فهي بالنّسبة للمعجم تبرز اشتراكها مع الجذر في المعنى العام الذي يحمله مع اختلاف في بعض الجزئيّات، بينما تمثّل مجالا خصبا للدّراسة بالنّسبة لعلم الصّرف، حيث يبرز في هذا النّوع من الكلمات التّغيّرات الّتي تطرأ على البنية الأصليّة للكلمة وكذا نوعها؛ لأنّ «**التّصنيف الذي سلكته اللّغة العربيّة في مجال الصّيغ له قيمة كبيرة في البناء اللّغوي، إذ تقوم عليه المعاني الوظيفية الصّرفيّة كاسم الفاعِل واسم المفعول**»[24]؛ فكلمات من أمثلة: **كَتَبَ**، و**كَاتِب**، و**مَكْتُوب**، و**مَكْتَب** تشترك جميعها

في معنى عام هو «**الكتابة**»، لكنّها تختلف في جزئيّات تتمثّل في كون الكلمة الأولى تدلّ على فِعل الكتابة، بينما تدلّ الثّانية على مَنْ قام بالكتابة، في حين تدلّ الثّالثة على الشّيء الذي كتب، والكلمة الأخيرة على مكان الكتابة، إنّما استدلَلنا على هاته المعاني انطلاقا من معرفة سابقة بالمعاني التي يكتسيها الجذر حينما تضاف إليه حروف الزيادة في مواضع معينة، وهي المعلومات التي أمدّنا بها علم الصّرف؛ فجعلت من زيادة الألف بعد فاء الكلمة وكسر عينها من الثلاثي يدلّ على اسم الفاعل، وبناء الكلمة على صيغة مفعول من الثّلاثي يدلّ على اسم المفعول، وما بني على مَفْعَل دلّ على اسم المكان، وغير هذا من الصّيغ التي تغيّرت دلالتها كلّما تغيّر حرف الزّيادة، أو تعدّدت أحرف الزّيادة في الصّيغة الواحدة، ولهذا «**أهمّيته البالغة في المعاجم عموما والمعاجم العربية خصوصا، ويتّصل أشدّ الاتصال بالمعلومات الصّرفيّة التي ينبغي على صانع المعجم العربي أن يأخذها في الحسبان سواء من حيث التّرتيب أو الدّلالة**»[25]؛ لأنّ أيّ تغيير في المبنى لابدّ أن يصحبه تغيير في المعنى.

3- تقاطع علم النّحو مع المعجم:

تعدّدت الكتابات الّتي جمعت علمي الصّرف والنّحو منذ القديم، كيف لا وهما العلمان المتلازمان اللّذان يمثّلان شطري العربيّة ودونهما لاستحالت لغتنا فوضى، من هنا كان ارتباط علم النّحو بالمعجم أمرا طبيعيا ومنطقيّا باعتماد علاقة الاستلزام، فما دام الصّرف لصيق النّحو وشريك المعجم في العديد من المسائل فلا بدّ من ظهور ما يجمع بين النّحو والمعجم، كيف ذلك؟

للإجابة على هذا التّساؤل ننطلق من القول الآتي: «... **وهناك ناحية أخرى من مسائل الصّرف تخرج عن حدود الكلمة الواحدة، هي تعدّي الفعل ولزومه، والمعاجم توضّح ذلك، ففي أساس البلاغة عَرُبَ لسانه، وعَرَّب عن صاحبه، وعَرَّب عليه، وتعَرَّبَت لزوجها، وطَلَب الشَّيء واطَّلَبَه وتَطَلَّبَه وطَالَبَه وطَالَبْتُه بحقٍّ لي عليه، وطَلَبَ مِنِّي فَأَطْلَبْتُه فَأَسْعَفْتُه، وأَطْلَبَهُ الفَقْر: أحوجه إلى الطّلب، وهداه السّبيلَ وإلى السّبيلِ فقد وضّح في ذلك كلّه ما هو لازم، وما هو متعدّ بحرف جرّ وما هو متعدّ بنفسه، كما أنّه يوضّح المتعدّي بمفعولين**»[26].

أمّا قوله: «وهناك مسائل أخرى من مسائل الصّرف تخرج عن حدود الكلمة الواحدة، هي تعدّي الفعل ولزومه» إنّما يحتاج إلى إعادة النّظر؛ لأنّنا متى ما خرجنا عن حدود الكلمة فسندخل في مجال آخر هو علم التّراكيب؛ ذلك أنّ الصّرف: «**علم بأصول تعرف بها أحوال الكلمة الّتي ليست بإعراب ولا بناء**»[27] وتعدّي الفعل أو لزومه يدخل الكلمة [الفعل] في علاقة إلزاميّة مع عناصر أخرى من شأنها أن توضّح المعنى وتنقله من المستوى الإفرادي إلى مستوى أعلى يسمّى «**الجملة**».

ولكن هذا لا يعني أنّ هذا القول مرفوض جملة وتفصيلا؛ لأنّ بنية الكلمة من شأنها أن تغيّر طبيعة الفعل، ومن ثمّة في الأركان الأساسة للجملة حتّى تكون ذات معنى يحسن السّكوت عليه وذلك في قول الزّمخشري * (ت538هـ) «طلب الشّيء وطالبته بحقّ لي عليه» أين تحوّل الفعل «طلب» من فعل متعدّ لمفعول واحد إلى فعل متعدّ لمفعولين وذلك بعد تحويل الفعل من **فَعَل** إلى **فَاعَل.**

أمّا قوله: «فقد وضّح في ذلك كلّه ما هو لازم، وما هو متعدّ بحرف جرّ وما هو متعدّ بنفسه، كما أنّه يوضّح المتعدّي بمفعولين» فليس فيه ما يمتّ لعلم الصّرف بصلة، بل هو من اختصاص علم التّراكيب(النّحو)؛ لأنّ تعدية الفعل بحرف الجر تحكمها علاقة المصاحبة، بينما تعديته بنفسه إلى مفعول أو مفعولين فتحكمها طبيعة الفعل في حدّ ذاته وإن كان لبنية الكلمة صلة بهذا الأمر كما أوضحنا ذلك سالفا.

وإذا كانت علاقة النّحو بالمعجم قد ظهرت انطلاقا من أبنية الكلم التّابعة لعلم الصّرف، فإنّها تظهر بطريقة غير مباشرة عند توضيح الدّلالات التي ترمي إليها المفردة وذلك باعتماد السّياق الّذي يؤدّي دورا مهمّا في تبيان

العلاقات التي تربط الوحدات الصّرفيّة مع بعضها البعض كالفاعليّة والمفعوليّة والزّمانيّة والمكانيّة إلى غير ذلك[28] وذلك كقولهم: «**نسغه بسوط، كمنعَه:نَخَسَه، و=* بكلمة: نزغه، و= بكذا: رماه به، و= الواشمة: غرزت في اليد الإبرة، و= في الأرض:ذهب، و= اللّبن بالماء مذَقه..** »[29].

وقد أدرك علماء البلاغة مكانة علم النّحو في إدراك المعنى عندما وجدوا معنى اللّفظة لا يستقيم إلّا إذا نظم في سياق معيّن ووفق قواعد معيّنة مستنبطة من استقراء كلام العرب؛ لهذا عرف النّحو بقولهم: «**اعلم أنّ علم النّحو هو أن تنحوَ معرفة كيفية التّركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقا بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وقوانين مبنية عليها ليحترز بها عن الخطإ في التّركيب من حيث تلك الكيفية**»[30]، وعليه فإنّ مزيّة استيفاء المعاني حقّها في الفهم عند السّامع/المتلقّي تعود إلى حسن النّظم وجودة السّبك اللّذين يقرّهما علم النّحو، ففي كلّ وجهة نحن مولّوها نجد هذا العلم ميزانا نحتكم إليه لمعرفة صحّة أقوالنا؛ لهذا نجد عبد القاهر الجرجاني يقول: «**فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطؤه إن كان خطأ؛ إلى النّظم ويدخل تحت هذا الاسم، إلّا وهو معنى من معاني النّحو قد أصيب به موضعه، وَوُضع في حقّه أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحّة نظم أو فساده، أو وصف بمزيّة وفضل فيه إلّا وأنت تجد مرجع تلك الصّحّة وذلك الفساد وتلك المزيّة وذلك الفضل إلى معاني النّحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله**»[31]، وما لجوء أصحاب المعاجم إلى الشّاهد إلّا دليل واضح على أهمّية النّحو في إبراز معاني المفردات من جهة، والمحافظة على اللّسان العربي من جهة أخرى، إضافة إلى وظائف أخرى حدّدها المعجميّون المحدثون والمعاصرون في ظل ما أفرزته اللّسانيّات الحديثة من نظريّات[32].

4- تقاطع علم الدّلالة مع المعجم:

تبدو وظيفة علم الدّلالة بادية للعيان في المعجم بعد أن تستكمل علوم اللّغة الأخرى من صوت وصرف ونحو مهامها، وتتبلور الفكرة في ذهن صاحبها لتتشكّل بذلك البنى الأساسية التي تكمّل العمل المعجمي وهي: «**البنية الذّهنية structure montale، والبنية الدّلالية structure semantique، والبنية الشّكليّة structure formelle، وهذه تقوم على الأبنية الصّرفيّة الخاصّة أو صنع الوحدات المعجميّة الشّكليّة التي تستمدّ قواعدها من علم وظائف الأصوات (الفونولوجيا) وعلم الصّرف أو المورفولوجيا**»[33] دون أن ننسى ما يقدّمه النّظام النّحوي لإبراز دلالة المفردات، فعلى الرّغم من كونه «**أقلّ الأنظمة الأخرى ظهورا في تعاريف المعجم فإنّه يظلّ ضروريا لتوضيح الدّلالات الملازمة لبعض المداخل التي لا يتّضح معناها إلّا من خلال الأسيقة والشّواهد**»[34].

فإذا عدنا إلى معجماتنا العربيّة منذ نشأتها الأولى سنجد أصحابها آخذين في السّير على هذا المنوال –أي بتسخير علوم اللّغة جميعا– لتوضيح دلالات مفرداتها دون أن يهملوا السّياقات* التي وردت فيها، والتي تعدّ عاملا أساسا للكشف عن دلالة اللّفظ، الأمر الذي جعله أصحاب النّظريّة السّياقيّة بزعامة فيرث «Firth» (1890-1960) حجرا أساسا لبناء نظريّتهم؛ إذ يرون «**أنّ معظم الوحدات الدّلاليّة تقع في مجاورة وحدات أخرى، وأنّ معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلّا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها**»[35] دون أن يخفوا ما للجانب الثّقافي، والاجتماعي، والعاطفي، والموقف الذي وردت فيه وحدة دلالية معينة وأسباب ذلك من أهمّية في كشف الحجاب عن المعنى الذي تخفيه وراء ستار من السّتائر السّابقة؛ لهذا قيل بأنّ معنى العبارات لا يتّضح إلّا من خلال نمط الحياة الذي يكون فيه أهل اللّغة جزءا منها[36]، فعندما قالوا: «**كبش القوم، أي سيّدهم**»[37]، و«**هي النّعجة: ويكنى بها عن المرأة**»[38] إنّما ذلك ناتج عن ثقافة العربي المرتبطة بفكرة القيادة التي تكون دائما للرّجل، أضف إلى هذا فإنّ ارتباطه الدّائم بحياة الرّعي جعلته يربط بين الأمرين ويسقط هذا على ذاك؛ وذلك راجع إلى أنّ

«للكلمة أكثر من معنى تصريحي وآخر إيمائي نظرا للتّداعيات التي يمكن أن تحدثها أثناء الاستعمال، فأيّ كلمة قد تستدعي قيما اجتماعيّة أو ثقافيّة أو حتّى قيما انفعاليّة تعكس صورة قائلها فتحدّد بعض ملامح الجانب النّفسي...»[39]، فإذا عدنا إلى البحث عن معنى في المعاجم العربيّة –مثلا– سنجدها مذكورة كالآتي: «**النَّعَج، محركة: والنُّعُوج الابيضاض الخالص...النّاعجة: الأرض السّهلة، والنّاقة البيضاء والسّريعة...والنّعجة: الأنثى من الضّأن... ونعاج الرّمل:البقر، الواحدة: نعجة، ولا يقال لغير البقر من الوحش...**»[40] وربطناه بالمعنى الذي أورده الفارابي في معجمه أمكننا القول بأنّ هناك علاقة وطيدة بينهما؛ لأنّ العربيّ كان يسمّي المرأة «**مها**»إذا **أراد**تشبيهها بالبقر الوحشي، وإذا شبّهها بالنّعجة التي هي أنثى الضّأن فذلك من باب فكرة الانقياد و الطّاعة التي تبديها النّعاج داخل القطيع، ويتّضح ذلك عندما نقرأ الأبيات التي نظمها أعرابي من الوافر حين تزوج اثنتين ثمّ ندم ندما شديدا فقال:

تَزَوَّجْتُ اثْنَتَيْنِ لفَرْطِ جَهْلِي بِمَا يَشْقَى بِهِ زَوْجُ اثْنَتَيْنِ
فَقُلْتُ أَصِيرُ بَيْنَهُما خَرُوفًا أُنَعَّمُ بَيْنَ أَكْرِمِ نَعْجَتَيْنِ
فَصِرْتُ كَنَعْجَةٍ تُضْحِي وَتُمْسِي تُداولُ بَيْنَ أَخْبَثِ ذِئْبَتَيْنِ[41]

لم تكتف المعاجم العربيّة بالوقوف عند حدود السّياق لتوضيح دلالة ألفاظها بل تعدّته إلى ما عرف عند جون لوك John Loke بالنّظريّة التّصوّريّة التي «تعتبر اللّغة «وسيلة أو أداة لتوصيل الأفكار» أو «**تمثيلا خارجيا ومعنويّا لحالة داخليّة» وما يعطي تعبيرا لغويا معنى معيّنا استعماله باطّراد (في التّفاهم) كعلامة على فكرة معيّنة**»[42]، فعندما يوضّحون معنى (**برد**) بقولهم: مات[43] فذلك ناتج عن إدراكهم بأنّ الموت يؤدّي إلى توقّف سريان الدّم في الشّرايين، وهو الذي يمدّ الجسم بالحرارة نتيجة التّفاعلات التي تحدث داخله. وعندما يقولون عن فلان «دسّ عقاربه: نمّ»[44] فهذا راجع لتصوّرهم مدى خطورة سمّ العقارب عندما يسري في جسم الإنسان، وكذا فظاعة ما ينجرّ عن النّميمة والفتنة بين النّاس؛ فالأوّل يؤدّي إلى قتل خلايا الإنسان والثّانية تعمل على تحطيمه نفسيا ما يؤدي إلى تدمير سلّم القيم الأخلاقية في المجتمع.

خاتمة

- على الرّغم من عدم اعتبار المعجم نظاما من أنظمة اللّسانيّات؛ فإنّ تركيبته لا تنفكّ تستعين بالأنظمة اللّسانيّة الأخرى بمختلف مستوياتها، لأنّ الاستغناء عنها سيجعل من المعاجم هياكل جوفاء لا معنى لها، وذلك راجع إلى أنّ كلّ نظام يمثّل عمادا أساسا لبناء هذا الهيكل.

- دراسة علماء العربيّة للصّوت العربي لم تكن لأجله في حدّ ذاته، بل كانت دائما موجّهة لخدمة مجال آخر يخصّ اللّغة العربيّة، وذلك راجع لاقتناعهم بأنّنا لا ننطق أصواتا معزولة عن بعضها البعض إنّما هي جزء من منظومة متكاملة.

- ليست الأولويّة عند أصحاب المعاجم الالتزام بطريقة معيّنة في تبيان دلالة مفرداتهم، ولكنّهم كانوا يعتمدون على أكثر من وسيلة للوصول إلى هدفهم، إذ المهمّ عندهم هو الحفاظ على هاته اللّغة وكيف كانت تستعمل من قبل أهلها.

الهوامش:

1- انظر مسائل نافع بن الأزرق عن عبد اللّه بن عباس، تحقيق: محمد أحمد الدّالي، الجفان والجابي للطّباعة والنّشر، ط1، 1993.

2- يقول ابن جنّي: «اعلم أنّ (عجم) إنّما وقعت في كلام العرب للإبهام والإخفاء وضد البيان والإيضاح من ذلك قولهم رجل أعجم وامرأة عجماء إذا كان لا يفصحان ولا يبينان كلامهما» سر صناعة الإعراب، تحقيق: حسن هنداوي، دار العلم للطّباعة والنشّر والتّوزيع، دمشق، ط2، 1993، ج1، ص 40.

3- جورج ماطوري، منهج المعجميّة، ترجمة وتقديم: علي الودغيري، منشورات الآداب والعلوم الإنسانيّة بالرّباط، المملكة المغربيّة، جامعة محمد الخامس، (د.ت)، ص 41.

4- ابن جني، الخصائص، تحقيق: محمد علي النّجّار، دار الكتب المصريّة، (د.ت)، ج1، ص 33.

*هذا لا ينفي أنّ سيبويه يستعمل مصطلح الصوت، فالظواهر التي تصاحب الحروف في باب الإدغام لا تفسر إلا صوتيا.انظر سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السّلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرّفاعي بالرّياض، ط2، 1982، ج4، ص 435.

5- انظر المرجع السابق، باب الإدغام ص 431 وما بعدها.

6- المرجع نفسه، ج4، ص 436.

*ما قلناه عن كون الحرف والصوت سيان عند سيبويه، ينطبق على توجه ابن جني في دراسته للحرف العربي.

7- انظر ابن جنّي، سر صناعة الإعراب، ج1، المقدّمة.

8- المرجع نفسه، ج1، ص 05.

9- الخليل، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السّامرّائي، دار مكتبة الهلال، ج1، ص 47.

10- المرجع نفسه، ج1، ص 52.

11- انظر المرجع نفسه، ج1، ص 59.

*البيت من بحر الطّويل.

12- المرجع نفسه، ج1، ص 60-61.

13- محمد حماسة عبد اللّطيف، النّحو والدّلالة – مدخل لدراسة المعنى النّحوي الدّلالي–، دار الشّروق، القاهرة، ط1، 2000، ص 39.

*أوّل من أطلق مصطلح Schèmeعلى الجذر هو جون كانتينو. انظر عبد الرّحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، موفم للنّشر، الجزائر، 2007، ج1، ص 48.

14- عبد اللّطيف المنيعي، نظريّة الجذر عند ابن جنّي، بحث مقدّم لنيل دبلوم الدّراسات العليا في علم اللّغة العام (مخطوط)، مكتبة جامعة محمد الخامس، الرباط، 1999–2000، رقم عربي 75953/54، ص 21.

15- هنري فليش، العربيّة الفصحى–دراسة في البناء اللّغوي–، تعريب وتحقيق وتقديم: عبد الصّبور شاهين، مكتبة الشّباب، (د.ت)، ص 76.

*يرى (GuyJuquois) أنّ «مفهوم الجذر لا تظهر أهمّيته إلّا في اللّغات الاشتقاقيّة كالعربيّة»، عبد اللّطيف المنيعي، نظريّة الجذر عند ابن جنّي، ص 21.

16- المرجع نفسه، ص28–29.

*على الرّغم من اعتماد الخليل المنهج الصّوتي في ترتيب معجمه، فإنّ هذا لا ينفي ترتيبه للمواد داخل كلّ باب اعتمادا على الجذر.

17- حلمي خليل، مقدّمة لدراسة التّراث المعجمي، دار النّهضة العربيّة، بيروت، ط1، 1997، ص 56.

18- المرجع نفسه، ص 53.

19- عدنان الخطيب، المعجم العربي بين الماضي والحاضر، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، ط2، 1994، ص 58.

20- انظر جبران مسعود، الرّائد الصّغير –معجم أبجدي للمبتدئين–، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1982، ص 83 و532.

21- عبد الرّحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيّات العربيّة، ج2، ص 117.

22- المعجم الوجيز، مجمع اللّغة العربيّة، جمهوريّة مصر العربيّة، (د.ت)، ص01.

23- فايز الدّاية، علم الدّلالة العربي –النّظريّة والتّطبيق– دراسة تاريخيّة تأصيليّة نقديّة، دار الفكر، سوريا، ط2، 1996، ص 210.

24- عبد اللّطيف المنيعي، نظريّة الجذر عند ابن جنّي.

25- حلمي خليل، مقدّمة لدراسة التّراث المعجمي، ص 54.

26- محمّد أبو الفرج، المعاجم اللّغويّة في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، ط1، 1966، ص 80-81.

27- خديجة الحديثي، أبنية الصّرف في كتاب سيبويه، منشورات مكتبة النّهضة، بغداد، ط1، 1965، ص 23.

* القول مسجّل في حديث محمّد أحمد أبو الفرج حينما أراد أن يبيّن مسائل الصّرف التي تخرج عن حدود الكلمة.

28- انظر حلام الجيلالي، تقنيّات التّعريف في المعاجم العربيّة المعاصرة –دراسة–، منشورات اتّحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999، ص 279.

*تعني هذه العلامة تكرار اللّفظ للمادّة المشروحة.

29- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مادّة (ن س غ).

30- السّكّاكي، مفتاح العلوم، تحقيق، أكرم عثمان يوسف، مطبعة دار الرّسالة، بغداد، ط1، 1982، ص 201.

31- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق، محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ط5، 2004، ص 82-83.

32- انظر حلام الجيلالي، تقنيّات التّعريف في المعاجم العربيّة المعاصرة–دراسة–، ص 206 وما بعدها.

33- ربيعة برباق، الدّلالة المعجميّة عند العرب، أطروحة مكمّلة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللّغة العربيّة وآدابها، تخصّص:علوم اللّسان العربي، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، 2011–2012، ص 402.

34- حلام الجيلالي، تقنيّات التّعريف في المعاجم العربيّة المعاصرة–دراسة–، ص 279.

* اعتناء المعجميّين العرب بالسّياق لا يعني أنّهم واضعو اللّبنات الأولى لنظريّة السّياق؛ لأنّ هذه النّظريّة باعتبارها منهجا علميّا له أسسه وضوابطه لم يظهر إلّا مع فيرث.

35- أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1998، ص 68–69.

36- جيفري سامسون، مدارس اللّسانيّات التّسابق والتّطوّر، ترجمة، محمد زياد كبّة، النّشر والمطابع–جامعة الملك سعود–، الرّياض، 1417هـ، ص 240 بتصرّف.

37- الفارابي، ديوان الأدب، تحقيق: أحمد مختار عمر، مؤسّسة دار الشّعب للطّباعة والنّشر، القاهرة، ط1، 2003، ج1، ص 144.

38- المرجع نفسه، ج1، ص 136.

39- بن الدّين بخولة، دلالة اللّفظ بين المعجم والسّياق، 2012، [مقال مستل من الأنترنيت].

40- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مادّة (ن ع ج).

41- أبو علي القالي، كتاب الأمالي، دار الكتب العلميّة، بيروت– لبنان، (د.ت)، ج2، ص 35–36.

42- أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، ص 57.

43- الفارابي، ديوان الأدب، ج2، ص 103.

44- المرجع نفسه، ج3، ص.